تمهيد

تقدم فى المجموعة السابقة أن اسم « من مكتبة جدى » هو أحد العناوين التى تعنون بها هذه السلسلة المتلاحقة من الأحاديث والمحاورات ، ويراد بهذا العنوان أن القارىء العصرى يحصل على كتبه التى يختارها لنفسه من معروضات المكتبات فى السوق ، ولكنه يرجع الى رف البيت ليطلع على الكتب التى اختارها جده ورجع اليها أبوه من قبله ، ويغلب أن تختلف فى هذه الكتب آراء الجيلين ، ولكنها اذا أعيد النظر فيها ـ قصدا أو اتفاقا ـ تبين أنها صالحة للقراءة من وجهة نظر الخلف كما كانت صالحة للقراءة من وجهة نظر السلف ، فهى فى تعدد جوانبها واختلاف النظر اليها أعم وأبقى من أن تنحصر فى حقبة واحدة أو ترتبط بحالة من الأحوال العارضة التى تنقضى بمطالعاتها كما تنقضى بأذواق قرائها وآراء أهل زمانها .

هى كتب انسانية تصلح للبقاء مع الانسان فى أكثر من جيل واحد ، وهكذا كان ـ ويكون ـ كل كتاب صالح للبقاء وكل ذوق مستمد من ينبوع الطبيعة البشرية غير مستعار من أزياء الزمن التى تذهب ولا تعود .

هذه المزية تظهر فى هذه المجموعة كما ظهرت فى المجموعة التى تقدمتها وفى كل مجموعة يدل عليها عنوان « مكتبة جدى » أو عنوان الدعوة الى المعرفة ، ولعلها مزية الكتاب الذين ألفوها أو مزيتهم فى هذه المؤلفات على التخصيص :

منها رواية « أوليفر تويست » بقلم ديكنز من كتاب القرن التاسع عشر ، ولكنه الكاتب الذى يكتب عن طوائف معلومة فى بلد محدود وعهد

واحد على الأكثر ، ثم يقرؤه تولستوى الروسى بعد جيله فيقول : « ان أبطال رواياته جميعا هم أصدقاء له شخصيون . لأنه استطاع أن يعرفهم « أناسى » كأبناء بلده ولم يمنعه أن يعرفهم هذه المعرفة أنهم انجليز وأن الكاتب الذى وصفهم كاتب انجليزى يكتب بالانجليزية لقراء عاشوا فى أقصى الغرب من القارة « الأوروبية » .

ومن كتب هذه المجموعة كتاب سپنوزا عن الأخلاق الذى ظهر فى القرن السابع عشر باللغة اللاتينية بين الهولنديين ، ولكنه يعود اليوم الى مفكر القرن العشرين فيجده فى موقف كموقف سپنوزا بين قضية الايمان وقضية العلم ، ويجد فى علماء العصر من يقول ان الخليقة كلها معادلة رياضية وان قوانين الرياضة كامنة وراء ظواهر الضوء والحرارة ووراء حركات الطبيعة وحركات الآلات ، وان قضية الحرية الانسانية والنواميس الكونية باقية لمن يشاء أن يعالجها بالحساب أو بالتفسيرات المادية للتاريخ ، وقد ترك لنا سپنوزا حلولها كما هدته اليه قوانين الرياضة وتعريفات الهندسة وانتظام الأخلاق الحية والعوارض الجامدة على نسق واحد من الحركة والسكون ، فعاد المفكرون من خلفاء سپنوزا يمتحنون عقولهم بقضايا هذه الهندسة الأبدية وبالحلول التى يحسبها بعضهم من الألغاز المبهمة ويحسبها الآخرون هداية المهتدى من الظلمات الى النور .

ومن كتب المجموعة كتاب « هكلبرى فن » لمارك توين أشهر كتاب الفكاهة فى عصره ، وواحد من عشرة على الأكثر يعدون فى طليعة أمراء الفكاهة الغربية ، وليس بينهم من هو أقل من سرفانتيز وهاينى وسويفت وفولتير .

يقول نيتشه ان الضحك على النكتة الواحدة أصدق دليل على الاقتراب بين نفسين وعقلين ، وقد امتلأت صفحات مارك توين بالنكت التى ضحك منها أبناء وطنه فى عصره وأبناء سائر الأوطان منذ أوائل القرن العشرين الى الآن ، لأن هذا الضاحك المبين يستوى عنده أن يقال

ان الانسان حيوان ناطق أو يقال انه حيوان ضاحك . فما من انسان تخفى عليه لغة الضحك التى تصدر عن الطبيعة الخالدة الا اذا خفيت عليه لغة الكلام . وانما تخفى هذه اللغة كما تخفى لغة الكلام اذا انفرد بها الضاحكون المصطنعون كما ينفرد المتكلمون بلغة يصطنعونها للرمز والاشارة ، لكى يلحنوها وحدهم ولا يلحنها غيرهم من السامعين .

واحدى ذخائر هذه المجموعة كتاب «ذكرى الماضى» للكاتب الفرنسى مارسيل پروست ، وحسبنا أن نقرأ عنوانه لنعلم أنه كتاب الماضى والحاضر ، وأن نلم باحدى صفحاته لنعلم أن الذكرى عنده عودة بالماضى الى الحياة وليست ذهابا بالحاضر الى زمان توارى بالحجاب ، وان التاريخ عنده صور تتجدد وتتردد ، وتتوالى على مسرح الزمن كما يتوالى الممثل على مسرحه فى مختلف الأدوار والأوضاع ، فحاضر پروست هو ماضى التاريخ وماضى العمر يطلع عليهما الشمس من خياله المتجدد كل صباح ، وهو « اجترار » لطعام الأمس وليس بالوجبة التى تؤخذ لساعتها فى أوان الوجبات من الصباح والمساء .

وتضم المجموعة مع هذه الكتب كتابا للقصاص الروسى « دستيڤسكى » تدرس أبطاله على مشرحة الأطباء النفسانيين كما تدرس أحوال الرجال والنساء من الأحياء فى كل أمة ومن كل قبيل ، وذاك هو كتاب « الجريمة والعقاب » الذى استطاعت عبقرية المؤلف أن تجعله نموذجا للنفس الروسية لا يلتبس بنماذج النفوس فى صورها العامة ، وأن تجعله مع ذلك معرضا بشريا لكل انسان يعرض له ما قد عرض لأولئك الروسيين من علل لطبائع وآفات المجتمع وغرائب الأطوار . وهذه قدرة عبقرية تتسم بها أعمال الفنون الخالدة فى كل لسان .

وقد اتفقت لكتب هذه المجموعة وحدة أخرى غير هذه الوحدة الانسانية العامة ، نظنها من فعل المصادفة التى لم يقصد اليها من اختاروا تلك الكتب للمناقشة أو اختاروها للترجمة العربية فى سلسلة واحدة .

تلك هى اتفاق القصص منها على تصوير حياة الطفولة المستغربة على وجوهها التى تتفرق فى تمثيل الطبقة وظروف النشأة والتربية البيئية أو الاجتماعية .

أوليفر تويست اللقيط الذى تتقاذفه الملاجىء ومغاور اللصوص وبيوت البر والرحمة .

وله زميل يشبهه هو «هكلبرى فن» الذى لم يكن من اللقطاء ولم تكن تعوزه بيوت البر والرحمة فى نشأته الباكرة ، بل كان له أب يلاحقه ويبتليه بشر مما ابتلى به اللقطاء المحرومون من الآباء والأمهات ، وكان له مأوى يرهقه بفرط الرعاية والملاحظة ، ولكنه تعلم التشرد من قسوة أبيه وحن الى فوضى المعيشة من سآمة الرعاية والملاحظة ،وسلم بعد ذلك من عقبى التشرد لأنه لم يفقد قط شعوره بالعطف الانسانى على الذين عذبوه أو أرهقوه أو صحبهم على العلات من أخوات الأزقة والخلوات .

وصاحب « ذكرى الماضى » مارسيل پروست طفل آخر محروم من العافية ولكنه موفور النصيب من تدليل الأهل ومواهب الفطنة والنبوغ .

وبطل « الجريمة والعقاب » ناشىء مختل البدن والنفس يعيش فى بيئة تزيدَ ما يعانيه من اختلال العيش واختلال التفكير ، ويدركه العطف فى بساطته البريئة فيلتمس فيه عوضا نافعا يصلح له ما أفسده داء الجسم وداء النفس وداء المجتمع الذى جنى عليه وارتكب فيه الجناية.

وهذه الطفولة المنوعة فى معارضها المتعددة ، وفى أساليب عرضها المشوقة ، زاد حسن لقراءة المتعة وقراءة الفائدة ، قد تنفع الكبير فيما يعلمه عن نفسه ويود أن يعلمه عن الانسان الصغير .

عباس محمود العقاد